



مالم

مجلة الدراسات العربية (سلسلة جديدة)
العدد الخامس

يصدرها

قسم اللغة العربية

جامعة عثمان بن فودي صكتو، نيجيريا



ربيع الأول/ 1444هـ / أكتوبر 2022م
التسجيل الدولي (e) 1118-3365 / 1118-3365 (p)
متوفرة على الموقع الإلكتروني: www.malamjournal.org

مالم
مجلة الدراسات العربية (سلسلة جديدة) العدد الخامس



MALAM

A JOURNAL OF ARABIC STUDIES

NEW SERIES
VOL. V

DEPARTMENT OF ARABIC
USMANU DANFODIYO UNIVERSITY SOKOTO NIGERIA



Rabi' Al-Awwal 1444 Oul., 2022
ISSN(e) 2695-2343/ISSN(p) 1118-3365
It is also available on: www.malamjournal.org

فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق للشيخ محمد بن إبراهيم النفاوي: دراسة فنية

إعداد:

Abdur-Rasheed Mahmoud-Mukadam
University of Ilorin, Ilorin.
Email: mukadam.am@unilorin.edu.ng

ملخص

يمثل فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق من مخطوطات الشيخ محمد بن إبراهيم مياس النفاوي؛ وهو عمل إبداعي سجل فيه الكاتب مشاهداته وانطباعاته الخاصة أثناء الرحلة التي قام بها هو وغيره من علماء الطريقة القادرية في نيجيريا إلى كل من مصر والحجاز والعراق؛ وتشكل مشكلة هذا المقال في أن هذا المخطوط يعد من بواكير ما كتب في أدب الرحلة في مدينة إلورن، ويدرس مدى توفيق الكاتب في وصف مشاهداته أثناء هذه الرحلة وصفا دقيقا يطلع القارئ على خباياها ودقائق أسرارها، ويخلق في القارئ تفاعلا عميقا وشعورا قويا. وتهدف المقالة إلى دراسة هذا المخطوط دراسة فنية من خلال الألفاظ والمعاني، والأسلوب مع العاطفة ثم الفكرة وغيرها مما يكسب هذا العمل الإبداعي رونقا وجمالا، وتتوخى المنهج التحليلي والتاريخي في دراسة الجوانب الفنية في هذا المخطوط، وتقصي الحقائق التاريخية في ترجمة صاحب المخطوط وعوامل تكوينه ثم إنجازاته العلمية. وبناء على هذا، تطرح هذه الأسئلة الآتية ليجيب عنها هذا المقال: من هو الشيخ محمد بن إبراهيم النفاوي؟ وما ملابسات تاريخية في كتابة المخطوط "فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق؟ وما تلك الملامح الفنية التي يكتظ بها هذا المخطوط؟

Abstract

The "Fath al Khallāq fir Rehlah ila Misra wal Hijāz wal Irāq" is one of the manuscripts written by Sheikh Muhammad bin Ibrahim Maimasa Al-Nafawi; It is a creative work in which the writer recorded his own observations and impressions during the trip that he and other scholars of the Qadiriyya in Nigeria made to Egypt, Hijaz and Iraq. The problem of this article is that this manuscript is considered one of the first things written in the travel literature in the city of Ilorin, and it examines the extent to which the writer succeeded in describing his observations during this trip in an accurate description that

informs the reader of its mysteries and subtleties of its secrets, and creates in the reader a deep interaction and a strong feeling. The article aims to study this manuscript as an artistic study through words, meanings, style with emotion, then the idea and others, which give this creative work elegance and beauty. Based on this, the following questions are raised for this article to answer: Who is Sheikh Muhammad bin Ibrahim Al-Nafawi? What are the historical circumstances in the writing of the manuscript "Fathu 'l Khallāq fir Rehlah ilā Misra wal Hijāz wal Irāq?" What are the artistic features that this manuscript contains?

مقدمة

أسهم الشيخ محمد بن إبراهيم مَيْقَاسًا النفاويّ بشكلٍ كبيرٍ في إحياء التراث العربي، يشهد لذلك كثير من أعماله اللغوية والأدبية، التي جعلته أن يُعدّ من أعلام اللغة العربية في إمارة إلورن؛ ولا سيما ما كتب عن مشاهداته وانطباعاته الشخصية في الرحلة التي قام به هو وعدد من كبار مشايخ الطريقة القادرية في نيجيريا عام ١٩٧٥م^١، تحت قيادة رئيس الوفد الشيخ محمد الناصر الكبري الكنويّ الصنهاجيّ؛ الذي أشار عليه أن يسجّل كل ما وقعت عليه عيناه في ثنايا تلك الرحلة، وعمل بذلك تحت قيادته وتوجيهاته الرشيدة^٢.

وهذا العمل-بحقّ- يمثّل باكورة من بواكير ما كتب في إمارة إلورن من أدب الرحلات، وقد سجّل فيه النفاويّ معظم مشاهداتهم والأماكن التي زاروها خلال هذه الرحلة، وكشف عن خبايا جمالها، حتى يشاركه القارئ في الشعور ويتأثّر تأثراً قوياً؛ وذلك لما انطبع به من نقل صحيح لأحوال المسير، ووصف دقيق للصور التي تنبني عليها تلك الأماكن المزارّة، مع بيان طقوس جغرافيتها، وتضاريس أراضيها من ضمن ما يتمتّع به القارئ من تفاصيل ما عايشه وعاصره هو وجميع من معه في هذا السفر، حتّى يتوهّم القارئ-وهو بهذه الصفحات- كأنه أمام فيلم سينمائيّ يُنقل إليه بشكل دقيق كافة تفاصيل خطط هذه الرحلة، ويشاهد مراسم خطوات الرحالة.

ومن الطبيعي، أن أدب الرحلات كان يعدّ من الفنون الأدبية القديمة في الأدب العربي، وقد أثرى هذا النوع الأدبي المكتبات العربية؛ لما يوجد له من مراجع تاريخيّة مهمّة، ومصادر كبيرة تؤثّق معلومات جغرافية حساسة؛ غير أنه في هذا الوقت الراهن يكاد يفقد هذا النوع الأدبي هويّته بين إخوانه من فنون الأدب العربي؛ وذلك لعوامل

كثيرة تتمخّض في التطور التكنولوجي الذي قرّب بين مناكب الأرض، ووحد بين مشارقها ومغاربها، كأن طول مسافتها مقدار ما بين الطرفين؛ إذ إنها تُطوى في غضون ساعات قليلة تقطعها سياراتٌ وطائراتٌ وصواريخٌ وغيرها مما استجدّ إليه التطور التكنولوجي، ولم يعد سفر اليوم كشأنه بالأمس، كما لم يعد رحالة اليوم مثل الرحالة القدامى. فالثورة التكنولوجية، وتقدم وسائل النقل، وكثرة عدد المسافرين لم تجعل من المسافر رحالة (بالمعنى التقليدي). وأضحى الرحالة سائحين يسلمون-في حقيقة الأمر-أمور سفرهم إلى غيرهم. وهكذا حرم المسافر من عمق وإثارة تجربة الرحلة الحقيقية، ولم يصبح الرحالة ذلك الشخص الكشاف المغامر، الذي تميّز رحلته بالفردية والأصالة^٢؛ وبذلك يعدّ التكنولوجيا عاملاً قوياً في غياب هويّة أدب الرحلة، وانطواء رقعته في الأعمال الأدبية المعاصرة.

تدرس هذه الورقة في هذا المخطوط الجوانب الفنية، التي من خلالها استطاع الكاتب النفاوي أن ينقل للقارئ جميع مشاهداته في تلك الرحلة، ونقلها للقارئ نقلاً صحيحاً، يجعل القارئ كأنه يشاهد جميع ما يقرأ في السطور بأمر عينيه، وقد ساعد على ذلك الاختيار المناسب للألفاظ وقوة المعاني وروعة الأسلوب وتوحي الصدق والأمانة في نقل المشاهدات مع وصفها وصفاً دقيقاً يتساير معه الوجدان وتتفاعل معه المشاعر.

النقطة الأولى:

• الشيخ محمد بن إبراهيم ميماس النفاوي ومخطوط "فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق"

أ- ترجمة الشيخ محمد بن إبراهيم النفاوي

هو الشيخ محمد بن إبراهيم بن صالح بن محمد بن عمر النفاوي، ولد عام ١٩٠٨م^٣ في أسرة علمية إسلامية صوفية عريقة بدار أونيماس في حارة غمّبر إلورن. ونشأ وترعرع تحت كنف والديه، وبدأ تلقّي القرآن - من والده الشيخ إبراهيم النفاوي إلى أن كتب الله له زيارة البيت الحرام، فانتقل محمد وشقيقته فاطمة إلى الشيخ عيسى مرفاً الزمفراوي؛ حيث واصل تلقّي القرآن إلى أن استزده والده بعد الرجوع من السفر؛ ليساعده في الشؤون الشخصية وبعض التدابير المنزلية، فأكمل لديه القرآن

الكريم، ولم يزل معه إلى أن توفي الوالد (إبراهيم) عام ١٩٢٦م وهو آنذاك في الثامن عشر من عمره^٥.

وتولى تربيته بعد وفاة والده الشيخ مصطفى إنداري الذي كان صديقاً وفيّاً له، وأخذه إلى معلّم يدعى كُولُوكَاَسَا في دَنكُوسِي ومكث عنده برهة، ثم انتقل إلى الشيخ إبراهيم بَاوَا بُودُوفُو الذي كان عالماً لغوياً فأخذ عنه كتاب "مفتاح الإعراب"، كما شرح له الشيخ إِيْدِي (إدريس) الكشناوي "لامية الأفعال في علم الصرف". ثم سافر إلى لاجوس وألقى عصا الترحال عند الشيخ أحمد الرفاعي إندى صلاتي الذي أخذ عنه الورد على الطريقة القادرية^٦، ولأزمه ملازمة تنعكس في كثير من أعماله الأدبية والصوفية.

كان الشيخ محمد شغوفاً للعلم والمعرفة، ولا نما إليه خبر أي عالم إلا اشتدّ عزمه إلى معرفته والاستفادة منه، وهذا التطبع الإيجابي جعله أن سافر إلى زَارِيَا لما سمع عن الشيخ مَاجِ إسحاق؛ ولما يصل إليه حتى وافقت هذا الشيخ-منيته، فتلمذ عند وصوله لخليفته الشيخ محمود ثم للشيخ بَلَازَنِي والشيخ يهود، وعندهم أخذ العلوم الشرعية ثم -أخيراً- نزل ضيفاً علمياً صوفياً على الشيخ محمد الناصر الكبري الصنهاجي^٧ وارتوى من معين عطائه الفياض. كما جمع بينه وبين العلامة الشيخ آدم عبد الله الإلوري لقاءات علمية عديدة نوقشت خلالها مسائل كثيرة من مسائل أصول الفقه^٨.

أسس الشيخ محمد في دهليزه مدرسة أسماها "أحباب المصطفى" يرتادها القاصي والداني؛ لينهل من معينه الصافي، وكان الشيخ يشرح لتلاميذه حسب لغة يفهمها كل طالب مثل: نوبي ويوربا وهوسا^٩، وأنتجت هذه المدرسة عدداً هائلاً من المشائخ والأئمة والقضاة والأعلام الأكاديمية والكتّاب البارزين من اليورباويين والنفاويين والهوساويين على السواء، وكان-إلى جانب ذلك- مفسراً في أيام رمضان في مسجد الإمام الغمبيري وقصر سمو أمير إلورن إلى أن توفي يوم الأربعاء، الثاني من شهر رمضان سنة ١٤٠١هـ الموافق ٢٣ من يونيو ١٩٨٢م تارك وراءه عطاءات علمية وفكرية عديدة تتمثل في مختلف مخطوطاته من بينها "فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق".

ب- فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق

من عادة الرحالة العرب أن يقوموا فرادى أو جماعة برحلات استكشافية: فنرى من بينهم من سافر من الجزيرة العربية لاكتشاف المناطق المحيطة بهم، ومن سافر من بلاد شمال إفريقيا والأندلس إلى الجزيرة العربية بهدف الحج، والتعرف على الحضارة العربية الموجودة في تلك المنطقة. وقد شهد القرن الحادي عشر للهجرة العديد من قصص الرحلات التي تمكّن فيها الرحالة العرب من الوصول إلى الكثير من المناطق والتي لم يكتشفها أيّ أحد من قبلهم، كما احتوى على مجموعة من الرحلات التي تؤثّق للعديد من الأحداث التاريخية المهمة^{١١}.

ومن أشهر الرحالة العرب: الإدريسي، والمسعودي، وابن بطوطة، وابن فضلان، وابن جبير، وعقب رحلات كل من هؤلاء اهتموا بتوثيق رحلاتهم، وكتابة القصص التي حصلت معهم في الأماكن التي ذهبوا إليها، كما اهتموا بجغرافية تلك الأماكن فعملوا على رسم الخرائط التي تقدم وصفا للتضاريس الجغرافية التي تعرفوا عليها^{١٢}.

فما أشبه الليل بالبارحة أن اعتزم عدد كبير من علماء الطريقة القادرية من إلورن وأبيكوكتا وكنو في ١٢/يونيو/١٩٧٥م، وقاموا بالرحلة إلى كلٍّ من مصر، والحجاز، والعراق، ولقد كان بين الرحالة رجال علم ودين، وكان بينهم أيضا طوافون من هواة السفر والترحال، وآخرون استهوتهم المغامرة ودفعتهم المخاطرة إلى كشف النقاب عن المجهول من الأرض والناس^{١٣} وقد تحدّد لدافع إلى هذه الرحلة بأنه دافع ديني كما أثبتته النفاوي في ثنايا الحديث وقد تختلف الدوافع التي حفزت الرحالة إلى رحلاتهم المتنوعة، ولكن أيا كانت هذه الدوافع-المعلنة منها والخفية- فقد اتّصف أغلبية الرحالة ولو بدرجات متفاوتة-بدقة الملاحظة والوصف والتقصي في تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق، كما حرص معظمهم على التفرقة بين المشاهدة والرواية عند تسجيل معلوماتهم، هذه كلها سمات قد أصبحت الآن بمثابة قواعد أساسية من منهجية البث الحقلية في الدراسات الاثنوجرافية بالمعنى الحديث^{١٤}

وقد سجّل النفاوي قصص هذه الرحلات في السطور، كما وصف فيها جميع مشاهداتهم وأوصاف الأماكن التي زاروها وصفا دقيقا جعل القارئ أن يقول له مثل ما قال محمد علي باشا في الكتاب رفاعة الطهطاوي: "أنه قد أودع في هذه الرحلة ما

شاهده من عجائب تلك البلاد، وأحوال أولئك العباد، ما يحرص العاقل على الأسفار والنقل في الأمصار، حتى يزداد بذلك علماً يقينا، ويفوق بالإحاطة بأحوال عبادته في الزمن اليسير بما لا يدركه القاطن بداره ولو عاش من السنين مئتيًا^{١٤} قام النفاوي بهذا العمل الإبداعي بإذن الشيخ الكبري وتوجيهه، ونفهم ذلك في قوله: "...ثم ثقْتُ وأمنتُ أيضا بإذن الشيخ الحاج محمد الناصر أمير جيش الشيخ عثمان بن فودي نغمده الله برحمته أمين ورضاه لي أيضا بأن أكتب كل ما سمعت من أقواله وكل ما رأيت من العجائب الغربية في أسفارنا ثم أذن لي بأن أسأله عن كل ما أشكل مني في حالات رحلتنا كلها ذهابنا وإيابنا..."^{١٥}

و"فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق" بوصفه مخطوطاً من مخطوطات الشيخ محمد بن إبراهيم مقيّماً عملاً إبداعياً يتراوح عدد صفحاته بين (٦٠) وزيادة حسب النسخة الموجودة عند الكاتب، وهو مكتوب بالخط النسخي، في كل صفحة حوالي اثنا عشر (١٢) سطراً، مستهلاً بنص قرآني (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) (الحشر: ١٠) ثم المقدمة التي فيها يبيّن المؤلف الغرض من الكتابة بقوله: "فجرت عادة المؤلفين أن يبدؤا كتبهم ومؤلفاتهم بمقدمة يبيّنون فيها طرفاً من موضوع كتبهم ومؤلفاتهم ويشرحون فيها أغراضهم ومقاصدهم فلذلك ينبغي للقارئ المبتدئ مثلي هذا الكتاب المتضمن لأخبار رحلتنا إلى حضرة الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني والجيلاني في بغداد قدس الله سره ونور ضريحه أمين وإلى بعض بلاد العرب لزيارة قبور الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام وإلى قبور الأولياء الكرام والعلماء رضي الله عنهم أمين أن يبدأ بمقدمة ليعلم فيه موضوع الكتاب والغرض إن شاء الله تعالى"^{١٦} وأردف بتقريظ قائد المسيرة ورئيس وفد تلك الرحلة الشيخ محمد الناصر الكبري الذي أسماه بقوله "قد اشتمل على فوائد جمّة وعجائب مهمّة لمن اهتم من المسلمين بأمور الدين وعتبات السادات المتقين، فلجلالة هذا الأمر وفخامته سمّيته بـ"فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق"^{١٧}.

ونرى في هذا العمل وما قدّم فيه المؤلف من مادّة ثريّة دليلاً بارزاً على قيمة رحلاتهم في تزويدهم مباشرة بالمعلومات المستمّدة من الملاحظة المباشرة والمُعَاينة الشخصية

عن الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية للبلدان التي زاروها أو أقاموا فيها، وعن طبائع أهلها ومعالم حضارتهم.

النقطة الثانية: دراسة وتقويم

أهم الأفكار الواردة في فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر...^{١٨}

أ-الكشف عن فوائد ومنافع وحظوات مترتبة على السفر من إجلاء الهموم والاطّلاع على قدرة الله في الكون وتدبير شأنه؛ ما يقارن ذلك من زيادة العقل، وتوسيع المدارك، وتثقيف المعرفة.

ب-البيان عن الغرض والحافز إلى القيام بالرحلة مع ذكر كل من أسماء رفقة المؤلف من إلورن إلى مدينة كُنُو أولاً، ووصف جميع معاناتهم في هذا الطريق قبل الوصول إلى كُنُو؛ حيث أدركهم المبيت ووصلوا إليها في اليوم التالي، كما وصف مدة الأيام التي قضوها في كُنُو قبل المغادرة وإقلاع الطائرة من كُنُو إلى لاجوس وإلى بيروت ثم إلى القاهرة، وعددهم في هذه الرحلة أربعة وثلاثون (٣٤) شخصاً، من إلورن، وأبيكو، وكُنُو.

ج-ذكر الأماكن والمواضع التي قاموا بزيارتها؛ ومن مزاراتهم في مصر العربية: الجامع الأزهرى مدفن رأس السيد حسن بن علي رضي الله عنهما؛ والموضع الذي يعرض فيه بقايا أمتعة النبي صلى الله عليه وسلم، مثل: عصاه ومكحله مع مرودها، والقرآن المكتوب في عهد سيدنا عثمان والذي كتب في عهد علي بن أبي طالب (رضي الله عنهما)، وقلعة دار يوسف القرقوشي سلطان مصر وبئر العميقة، ومسجد محمد باشا سلطان مصر، ثم مسجد آخر بجانبه فيه مقابر الصوفيين ومقابر بعض السلاطين، ومجالس التدريس للأئمة الأربعة وغير ذلك من الأماكن. كما ذكر من ضمن مزاراتهم في المملكة العربية السعودية جدة، والمدينة حيث زاروا الروضة النبوية الشريفة، ومكة المكرمة، وزاروا بها بعد أداء العمرة قبر عبد الله بن زبير الصحابي الجليل، ومقبر الشيخ محمد المجتبى المغربي الذي أخذ عنه الشيخ محمد الناصر الكبيري ورد القادرية ثم زاروا الرياض. ثم زاروا في العراق كثيراً من مقابر العلماء والأولياء أمثال: الشيخ عبد القادر الجيلاني، وجده الشيخ الكاظمي، والإمام أبي

حنيفة، والشيخ الجواد، ومعروف الكرخي وجنيد البغدادي، كما زاروا فيها مقبر النبي يوشع فتى موسى عليهما السلام، وقبر الشيخ بهلول وأمثالهم. ثم العودة إلى نيجيريا مع ما يترتب على ذلك من استقبال هائل قام به أهاليهم وذويهم من المريدين .

الملاح الفنية في فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق

وقد وجد الدارسون أن ما تركه الرحالة من أعمال، قد احتوت على الكثير من الملامح الأدبية والنواحي الجمالية التي برزت في اختيار الألفاظ، وحسن الأسلوب، وجمال التعبير؛ ولهذا أضحت كتابات الرحالة مجالاً للتحليل الأدبي والتحليل اللغويّ معاً. وبما أن للرحلات قيمة تعليمية من حيث أنها أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان وإثراء الفكر وتأملاته، وتزخر مادة الرحلات بالعناصر الأدبية حتى درج الكتاب العرب على استخدام عبارة "أدب الرحلات" للإشارة إلى كتابات الرحالة المسلمين وغيرهم، التي يصفون فيها البلدان والأقوام، والتي يذكرون فيها أيضاً أحداث تجوالهم، ودوافع رحلاتهم، وما قد يصاحب ذلك من بلورة لانطباعات شخصية، أو إصدار أحكام تقويمية لما شاهدوه أو سمعوه.

ونظراً لارتقاء الوصف في كثير من أعمال الرحالة وبلوغه حداً كبيراً من الدقة، علاوة على عملية الأسلوب القصصي السلس المشرق، أدخلت أدبيات الرحلات ضمن فنون الأدب العربي، وأصبحت قراءة أدب الرحلات متعة ذهنية كبرى^{١٩}.

الملاح الفنية في فتح الخلاق في الرحلة إلى الحجاز ومصر والعراق

انتقاء الألفاظ ورصد قوّة المعاني

لا يظهر جمال أيّ عمل من الأعمال الأدبية إلا بعد وضعه على الميزان النقدي بمقاييسه الموضوعية، التي منها مقياس الألفاظ والمعاني؛ لأنهما يعدان بذور عمل أدبي أو حجر أساسي يقوم عليه الجمال الفني، وليس من الطبيعي أن لا ينسجم اللفظ والمعنى، أو أن تباين الألفاظ عن دلالات معانيها، فاختيار اللفظ المناسب للمعنى يعد من مهمات أساسية يعمل لتحقيقه الكاتب؛ إذ المعنى مخفي في ضمير الكاتب ولا ينم عن قدره وكيفيته إلا اللفظ الذي يمثل العلاقة التفاعلية بين الكاتب والمتلقّي.

وقد وفق الكاتب النفاوي إلى مدى كبير في اختيار ألفاظ هذه الكتابة؛ وذلك لتمام التناسب بين ألفاظها ومعانيها والانسجام التام بين معانيها ودلالاتها، وقد بعد كل البعد عن غرابة الألفاظ وحوشيتها وتعقيدها، كما يلمح ذلك القارئ في قوله "...هذا من بذل جهدي واستفراغ وقتي منذ يوم رجعنا من هذه الرحلة بأني لم أسلم من الواقع في اللغات اللغوية أو الزلل في التعبير والتردد في التفكير زمانا طويلا طويلا" ويقطف القارئ أثمار هذا الانتقاء اللفظي من حيث مطابقتها للانفعال الشعوري مطابقة تامة، وقد أدت ألفاظها المعاني الجميلة، يظهر من القارئ التفاعل الشعوري والوجداني معا؛ لأن تناسق التعبير مع الشعور، وتطابق الانفعالات مع شحنات الألفاظ، واستنفاد العبارة اللفظية للطاقة الشعورية، وهو ما يوصف بأنه عمل من صنع الإلهام. ٢٠

الأسلوب وجمال التعبير

والأسلوب هو الطابع الخاص الذي يطبع به الكاتب كتابته والشاعر شعره، والقاص قصته، فتعرف به شخصيته ويتميز باختياره المفردات وانتقاء التراكيب لأداء أفكاره حق أداء، أو هو إنه هو القالب الذي يصب فيه كل واحد منا فكره وعاطفته، والمنوال الذي تنسج فيه التراكيب، ولا يخلو بين الاثنين: إما أن يكون سهلا واضحا غير متكلف، أو يكون مزخرفا معقدا وعرا.

وقد توخى الكاتب النفاوي أسلوبا جميلا في التعبير عن أفكاره ومشاعره وخواطره؛ ويتجلى ذلك في أنه تحرى البسط والتوسع، الذي يعدّ من متطلبات العمل الروائي و القصصي؛ ومن قبيل ذلك قوله: "ثم ذهبنا إلى مسجد علي باشا سلطان مصر، وفي أسفارنا إلى زيارات في القاهرة، جاوزنا المحل الذي يسعى القرافة الصغرى، وفيها قبور كثيرة ثم جاوزنا القرافة الكبرى، وفيها أيضا قبور أكثر مما في القرافة الصغرى؛ وهذا يعمل في إخطار القارئ -إلى حدٍ بعيدٍ- عن جمال الموصوف، كما يُشبع نهم التطلع إلى معرفة بعض الحقائق التاريخية، وللأسلوب قيمة لا تُنكر في جمال التعبير ونتنه؛ إذ اختيار ما يناسب من الأسلوب يكسب التعبير جمالا، وعدمه يحكم بالنتن والتنقّر منه.

قوة العاطفة وصدقها

تعدّ العاطفة عنصراً هاماً في الأدب؛ ولكنها لم تعرف بهذا الاسم إلا في العصر الحديث؛ غير أن وجودها ثابت وقديم قدم الأدب؛ وقد أطلق عليها في الأدب الألماني كلمة العشق، فيقال: فيه عشق كبير، كما نجدتها في طبقات الشعر لابن قتيبة أن قول الشعر للرغبة أو الرهبة، ولكن لا تجد كلمة العاطفة؛ ومهما يكن الأمر، فإن العاطفة تمنح الأدب الصفة التي نسميها بالخلود؛ وهي "حالة شعورية تندفع من النفس البشرية إثر انفعالها بحدث تراه أو تسمعه، أو بمشهد يؤثر فيه، والعاطفة تقابل العقل ولا توافقه في أغلب الأحيان، فما يراه العقل غير ما تهواه العاطفة، وهي مرتبطة بالشعور الإنساني ولا تنفصل عنه، مهما كان الإنسان عنيداً في إظهار مشاعره.

وتحدّدت العاطفة في هذه الكتابة بقوتها وصدقها، وهي عاطفة تأصلت جذورها من الدين والتصوف، وهي العاطفة التي هيّجت قلوب الرحالة القادرين كان من بينهم الكاتب النفاوي، وجعلتها مستعدة للقيام بهذه الرحلة، وهي في معناها، عاطفة دينية محضة، تتسم بإشباع رغباتهم في التعرف على بعض البطولات الإسلامية والصوفية؛ وذلك من خلال زيارة قبور الأنبياء والعلماء والأولياء في أماكنها المختلفة (في مصر والمملكة العربية السعودية والعراق)، فإنها رحلة دينية متسمة الكتابة عنها بعاطفة دينية كما يحملها ما نصه "...هذا الكتاب المتضمن لأخبار رحلتنا إلى حضرة الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر حضرة الشيخ عبد القادر الكيلاني والجيلاني في بغداد قدس الله سره ونور ضريحه آمين وإلى بعض بلاد العرب لزيارة قبور الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام وإلى قبور الأولياء الكرام والعلماء رضي الله عنهم آمين..."²¹ وما انفك هذه العاطفة المتأصلة في الدين والتصوف-طوال هذه الكتابة- تسير على خرائط مرسومه في هذا السفر؛ إذ لم يقدّم أمام تحقيق أهدافها عارضاً خارجياً آخر، ولم يعق دون الوصول إليها زائغ ثقافي أو حضاري، مما جعلها أن توصف بالقوة والصدق.

صحة التصوير ودقة الوصف

إن وصف الأشياء وتصويرها تتوقف صحتها ودقتها على الصدق والأمانة؛ لا سيما في تسجيل أحداث الرحلة ووصف مشاهداتها؛ حيث يكمن جدوى هذا التسجيل في

إطلاع القارئ على حقائق الأشياء أو المشاهدات التي رآها الرحالة أثناء سفره، فعلى الكاتب أن ي توخى الصدق والأمانة، فلا يضطره أي عامل خارجي أو دافع ميوّلي إلى الغلو والمبالغة في تصوير الأشياء ووصف المشاهدات وصفا يتغابر عن حقيقتها ووضعها، فيلبس الأشياء -جاء ذلك- بملابس خيالية كاذبة تتنافر مع الحقيقة والواقع، ومثل هذا العمل الإبداعي لا يقل شأنًا في تزويد معلومات وإثراء أفكار تاريخية إذ إنه من المصادر الهامة يستسقي منه المستقبل العلمي أو التاريخي مياه البحث والتنقيب.

وقد تحرى النفاوي صحة تصوير ودقة وصف في هذا العمل إلى حدّ كبير؛ حيث وصف مشاهداتهم في تلك الرحلة وصفا يتلاءم مع صورتها وكيانها، ومن قبيل ذلك وصفه للأهرام في الجيزة بمصر العربية وصفا يكشف عن القارئ صورته الحقيقية حتى يشعر في نفسه كأنه بين يديه متمثل، وها هو يصفه بأنه "...بيت كبير واسع طويل، بلغ عرضه ثلث ميل، وارتفاعه فوق ذلك، وطول طوب واحد خمسة أزرع، وعرضه أربعة أزرع هكذا ارتفاعه، ولهذا البيت باب واحد، وجوفه ضيق، وليس فيه حرّ، مع إنه ليس له منفذ، ولا كوة، ولا مروحة الكهرباء، والدخول فيه صعب، لا يدخله الداخل إلا بالدبيب، ثم لا يستطيع من دخله أن يرجع بالاستدبار إلا بالقهقريّة لكن في داخله الكهرباء يستضاء بها..."^{٢٢}

وفي هذا الوصف يرى القارئ أن الكاتب حاول كل المحاولة أن يعرض على القارئ صورة هذه الأهرام، مستعينا في سبيل الوصول إلى ذلك بآليات الوصف اللفظية الهادفة، التي تكشف عن خباياها ودقائق أسرارها، حتى يشعر القارئ -بمجرد القراءة- كأنه يشاهد ذلك المكان ويعايشه معاشة حقيقية، ولم يقف عند هذا حد الاستعانة بآليات لفظية بل حاول أن يضع للقارئ هيكلًا بصوريًا بحنكته الرسمية ليتجلى على القارئ مدى صدقية الوصف في تلك الأهرام.^{٢٣}

الاستيعاب والتعمق

من جماليات تسجيل الأحداث ووصف المشاهدات في أدب الرحلات أن يتّصف بنوع ما من الاستيعاب والتعمق؛ حيث يحاول الكاتب أن يستوعب جميع ما يحاول عرضه على القارئ أو أن يتعمق في إخبار عما وقعت عيناه خلال هذا السفر. وهذا

الخاتمة

يمثل "فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق" مخطوطاً ثرياً من مجموعة مخطوطات الشيخ محمد بن إبراهيم النفاوي، وبأكورة من بواكير أدب الرحلات في الإمارة إلورن؛ وهو عمل إبداعي أثبت فيه الكاتب حنكته المنوّهة، وتجربته المشكورة في مجال الكتابة العربية في نقل أحداث سفره وتسجيل أوصاف مشاهداته بحيث يتفاعل معه القارئ تفاعلاً عميقاً، ويتأثر بتنسيق عباراته وأفكاره تأثراً قوياً؛ وذلك من خلال اختياره الموفق للألفاظ المناسبة للمعاني المقصودة، بعيدة عن الغرابة والتنافر والتعقيد، وصاغ تعابير به بأسلوب جيد يأخذ بكلية القارئ من البداية إلى النهاية مع صدقية العاطفة وقوتها، يعرض تحت أزيائها معلومات قيّمة تؤثّق الأفكار التاريخية، وتفنّد افتراضاتها التخمينية في استيعاب وتعمّق.

الهوامش والمراجع

١- انظر فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق من مخطوطات الشيخ

محمد بن إبراهيم النفاوي

٢- المرجع نفسه

٣- فهيم، حسين محمد الدكتور، أدب الرحلات، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، صدرت سلسلة في يناير ١٩٢٣-١٩٩٠م، ص٤٤

٤- بودوفو، خليل الله محمد عثمان، من أعلام الأدب العربي النيجيري، الشيخ محمد ميماس ١٩٠٨م-١٩٨٢م؛ مقالة مقدمة في المؤتمر الدولي الذي عقده قسم اللغة العربية، جامعة عثمان بن فوديو، صكتو، ٢٠١٠م، ص٦

٥- المرجع نفسه، ص٦

٦- المرجع نفسه، ص٧

٧- المرجع نفسه.

٨- المرجع نفسه، ص٣

الاستيعاب والتعمق قد يفيد القارئ على ثبات بعض الحقائق التاريخية أو تفنيدها- عن طريق مباشر أو غير مباشر- ويكسب العمل قيمة عظيمة بالاعتماد عليه كوثيقة مهمة ومرجعا أساسا في البحث عن الحقائق التاريخية.

قد بلغ هذا الاستيعاب والتعمق منتهاه في بعض ما عرضه الكاتب في هذا العمل، ولم يكن عرضه عرضا سطحيا بل كان يحاول قدر استطاعته تزويد المعرفة اليقينية للقارئ، ومما يكشف عن ذلك قوله في معرض مشاهداتهم في القلعة (قرية من قرى مصر العربية) فيقول " ثم رحنا إلى القلعة أي داريوسف القراقوشي سلطان مصر لا النبي يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وفي داره بئر عميقة، وإذا خفضت رأسك جانبها وقلت: الله أكبر بارتفاع صوتك، تمدّه مقدار دقيقتين، يسمع صوتك من كان بعيدا كذلك، وبنائه منذ الزمان الطويل"^{٢٤}.

استوعب الكاتب وتعمق في هذه القطعة السابقة وذلك في قوله: أنه ليس النبي يوسف بن يعقوب" لأن كثيرا ما ينسب هذه البئر إلى يوسف بن يعقوب عليه السلام، حتى يقال إنها تلك البئر التي قذفه فيها إخوته إلى جانب ما يقال في هذا الشأن؛ ولكن الكاتب حاول محاولة مشكورة في أن لا يكون عرضه عرضا سطحيا وتقدم به قدم البحث والملاحظة إلى أن يستكشف لنفسه وللقارئ أي بئر النبي يوسف أو بئر غيره الذي يتسمى بذلك الاسم، فتبدّد نتيجة ذلك ما قد كان يوهم القارئ أو كان يفرض عليه بعض الروايات التاريخية أو الافتراضات التخمينية.

ومن قبيل ما في هذا العمل من الاستيعاب والتعمق لرفع التخمينات التاريخية والملابسات الافتراضية ما أثبت في حديثه عن مشاهداتهم في كل من كربلاء والنجف في العراق، فقال " ثم ذهبنا إلى مسجد عباس بن علي في كربلاء، وبعد ذلك خرجنا من كربلاء إلى النجف الأشرف، وفيها مسجد سيدنا علي كرم الله وجهه أمين، لقد رأينا قبره را[العين في بلدة النجف، ولم يكن كما زعم بعض الناس بأن ليس له قبر على الأرض، وقال بعضهم: لما غسلوه بعد وفاته وصلى عليه العلماء، فلما فرغوا الصلاة، وفقدت جنازته حتى الآن، وهذا باطل، وقبره موجود ثابت في النجف بلدة قريبة من محل خلافته، ومسجده كبير جميل وقبره في مسجده"^{٢٥}.

- ٩- استفاد الكاتب بتلك المعلومة في إحدى جلسة التوعية عقدها العلامة الإلوري للطلاب بمركز التعليم العربي الإسلامي، أغيني، ١٩٩١م
- ١٠- بودوفو، المرجع نفسه، ص٣
- ١١- مقالة منشورة على الشبكة العنكبوتية تحت موضوع مفهوم أدب الرحلة- خصائصه mawdoo3.com
- ١٢- فهم، المرجع نفسه، ص١٢
- ١٣- المرجع نفسه، ص١١
- ١٤- المرجع نفسه، ص١٢
- ١٥- انظر رفاعه رافع الطهطاوي في تخلص الإبريز في تخلص باريز، دار الثقافة والإرشاد، ص١٩٥
- ١٦- النفاوي، محمد بن إبراهيم، فتح الخلاق في الرحلة إلى مصر والحجاز والعراق؛ مخطوط للمؤلف المذكور، ص٥
- ١٧- المرجع نفسه، ص٣
- ١٨- المرجع نفسه، ص٦١-٦٢
- ١٩- مقدم، عبد الرشيد محمود، دراسة موضوعية للمخطوطات العربية في إمارة إلورن، نيجيريا؛ رسالة نال بها الباحث الدرجة العالمية (الدكتوراه) بقسم اللغة العربية، جامعة إلورن، إلورن، نيجيريا عام ٢٠١٣م، ص٢٢٩
- ٢٠- فهم، المرجع نفسه، ص١٣
- ٢١- راجع: النقد الأدبي، أصوله ومناهجه لسيد قطب، بدون ذكر المطبعة وتاريخ الطبع.
- ٢٢- النفاوي، المرجع نفسه، ص٣
- ٢٣- المرجع نفسه، ص٣٠
- ٢٤- المرجع نفسه، ص٣٢
- ٢٥- المرجع نفسه، ص٢٣
- ٢٦- المرجع نفسه، ص٤٧

MALAM

*A JOURNAL OF ARABIC STUDIES
(NEW SERIES)*

VOL. V

RABIU AL-AUWAL 1444/ OCT., 2022

DEPARTMENT OF ARABIC

**USMANU DANFODIYO UNIVERSITY SOKOTO
NIGERIA**